تفسير سورةُ الشعراء
من آية (52) إلى آية (68)
اللقاء الرابع

المعنى الإجمالي من آية (27) إلى آية (68):

قال موسى: هو ربُّ المشرقِ والمغرِبِ وما بيْنَهما إنْ كنتُم تَعقِلون.

قال فِرعَونُ مُهدِّدًا موسى عليه السلامُ بعدَ أنْ عجَز عن دفعِ حُجَّتِه: لَئِنِ اتَّخذْتَ مَعبودًا غيري لأُصَيِّرَنَّك مِن المسجونينَ. قال موسى: أتَسجُنُني ولو أتيتُك بمُعجزةٍ ظاهرةٍ تُبَيِّنُ صِحَّةَ ما جِئتُك به؟ قال فِرعَونُ لموسى: فأْتِ بمُعجِزتِك هذه إنْ كنتَ صادقًا. فرَمى موسى عصاهُ على الأرضِ فانقَلَبت حيَّةً ضَخمةً ظاهِرةَ الوُضوحِ، وأخرَج يَدَه مِن فَتحةِ قَميصِه العُلويَّةِ فإذا هي بَيضاءُ تَلمَعُ، فقال فِرعونُ لِمَن حوْلَه: إنَّ هذا لساحِرٌ ذو عِلمٍ بالسِّحرِ، يريدُ أن يُخرِجَكم مِن أرضِكم بسِحرِه، فماذا تُشيرون علَيَّ مِن الرأيِ في شأنِه؟ فقالوا له: أخِّرْ موسى وأخاه هارونَ وأمهِلْهما، وابعَثْ في مُدُنِ المملكةِ مَن يَجمَعون السَّحَرةَ إليك؛ يأتوك بكُلِّ ساحرٍ عليمٍ ماهرٍ؛ لِيُعارِضوا ما جاء به موسى. يقولُ الله تعالى: فجَمَعَ الحاشِرون السَّحَرةَ للوَقتِ المحَدَّدِ لاجتِماعِهم، وقيلَ لأهلِ مِصرَ: هل أنتم مُجتَمِعون؛ لِتَنظُروا لِمَن يكونُ النَّصرُ والغَلَبةُ، لعَلَّنا نتَّبِعُ السَّحَرةَ إنْ كانوا سيَغلِبون موسى؟ فلمَّا جاء السَّحَرةُ فِرعَونَ قالوا له: هل لنا مِن أجرٍ عِندَك إنْ غَلَبْنا موسى؟ قال فِرعَونُ لهم: نعم، وتَكونون أيضًا مِن المقَرَّبين عندي، فلمَّا اجتمَعَ السَّحَرةُ بموسى قال لهم: اطرَحوا ما تُريدونَ طَرحَه، فألقى السَّحَرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم الَّتي أعَدُّوها للسِّحرِ، وقالوا: بعَظَمةِ فِرعَونَ وقُدرتِه، إنَّا لنحن الغالِبون لموسى.

فألقى موسى عصاهُ فابتلَعَت ما ألقاه السَّحَرةُ مِن الحِبالِ والعِصيِّ الَّتي خيَّلوا للنَّاسِ أنَّها حيَّاتٌ، وخَدَعوهم بذلك، فلمَّا رأى السَّحَرةُ ذلك عَرَفوا صِدقَ موسى عليه السَّلامُ، وأنَّ ما جاءهم به حَقٌّ ليس سِحرًا ولا تَمويهًا، فخرُّوا ساجدينَ لله تعالى، وقالوا: آمنَّا برَبِّ العالَمينَ؛ ربِّ موسى وهارونَ. فلمَّا رآهم فِرعونُ على هذه الحالِ قال لهم: أآمنتُم بأنَّ ما جاء به موسى حقٌّ، واتبَعْتُموه قبْلَ أنْ آذَنَ لكم؟! إنَّ موسى لَرئيسُكم وكبيرُكم الذي علَّمكم السِّحرَ، فلَسَوف تَعلَمونَ.

ثمَّ توعَّدهم فِرعونُ، فقال: لَأُقطِّعَنَّ مِن كُلِّ واحدٍ منكم يدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مختَلِفَتينِ، ولأُصَلِّبَنَّكم جميعًا. فقال السَّحَرةُ له: لا ضرَرَ علينا مِن عقابِك، فسنصبِرُ عليه؛ لأنَّنا إلى اللهِ راجِعونَ، فيُجازينا على إيمانِنا وصَبرِنا، إنَّا نرجو أن يغفِرَ لنا ربُّنا ذُنوبَنا؛ لأنَّنا كُنَّا أوَّلَ المؤمنينَ بالحَقِّ لَمَّا جاءَنا.

يُبيِّنُ الله تعالى ما أمَر به نبيَّه موسَى عليه السلامُ، وما حلَّ بفرعونَ وقومِه مِن هلاكٍ، فيقولُ: وأوحى اللهُ تعالى إلى موسى أن يسيرَ ببني إسرائيلَ ليلًا؛ لأنَّ فِرعَونَ وجُنودَه سيتَّبِعونَهم لِيَحُولوا بيْنَهم وبيْنَ الخُروجِ مِن مِصرَ، ولَمَّا عَلِمَ فِرعَونُ بخُروجِ موسى ومعه بنو إسرائيلَ، أرسَل مَن يجمَعُ له الجنودَ مِن المدائنِ المتعَدِّدةِ في مملكتِه، وبعْدَ أنِ اكتمَلَ عدَدُ جُنودِه أخَذ يهوِّنُ مِن شأنِ موسى ومَن تَبِعَه، فقال: إنَّ بني إسرائيلَ الذين خرَجوا بدُونِ إذْني لَطائفةٌ ضعيفةٌ وقليلةٌ، وإنَّهم مُغضِبون لنا أشدَّ الغضَبِ، وقد أخَذْنا حِذْرَنا منهم، وتأهَّبْنا لهم بالقُوَّةِ والسِّلاحِ.

ثمَّ يذكرُ سُبحانَه عاقِبةَ فِرعَونَ وقَومِه، فيقولُ: فأخرَجْنا فِرعَونَ وقَومَه مِن بساتينَ وعيونٍ عَذبةِ الماءِ كانوا يَشرَبونَ منها، وأموالٍ كانت مملوكةً لهم، ومساكِنَ حَسَنةٍ كانوا يُقيمون فيها، كذلك وأورَثْنا تلك الجنَّاتِ والعُيونَ والكُنوزَ والمساكِنَ بني إسرائيلَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه بعدَ ذلك ما حدثَ مِن فِرعَونَ وقَومِه، وما قاله بنو إسرائيلَ عندَما شاهَدوهم، فيقولُ: فلَحِقَ فِرعَونُ وجُنودُه بني إسرائيلَ وقتَ شُروقِ الشَّمسِ، فلمَّا رأى كُلُّ فريقٍ خَصمَه قال أصحابُ موسى: سيُدرِكُنا فِرعَونُ وجُنودُه ولا نستطيعُ الفِرارَ؛ فهم خَلْفَنا والبَحرُ أمامَنا. فقال موسى واثِقًا مِن نُصرةِ الله له: ليس الأمرُ كما تَظنُّون؛ لأنَّ ربِّي معي بنَصرِه وتأييدِه، وسيَهديني لطَريقِ النَّجاةِ والفَوزِ.

فأوحى اللهُ تعالى إلى موسى عليه السَّلامُ، فقال له: اضرِبْ بعصاكَ البَحرَ، فضرَب موسى بعَصاهُ البَحرَ فانشَقَّ، فكانت كلُّ قِطعةٍ مِن الماءِ كالجَبَلِ الشامِخِ الكبيرِ، وقرَّبْنا هنالك فِرعَونَ وجُنودَه مِن موسى وقَومِه، فدخَلوا وراءَهم في الطَّريقِ المنشَقِّ مِن البَحرِ؛ ليَلحَقوا بهم، فأنجَينا موسى ومَن معه مِن الغَرَقِ، وأغرَقْنا فِرعَونَ وقَومَه أجمعينَ.

إنَّ في قصَّةِ موسى وفِرعَونَ لَعِظةً وعِبرةً عَظيمةً، وما كان أكثَرُ قَومِ فِرعَونَ مُؤمنينَ بالله، وإنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- لَهُوَ العزيزُ القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعِبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿52﴾

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) أي: وأوحَيْنا إلى موسى أنْ سِرْ بعِبادي بني إسرائيلَ ليلًا، وسيتَّبِعُكم فِرعَونُ وجُنودُه؛ لِيَحُولوا بيْنَكم وبيْنَ الخُروجِ مِن أرضِ مِصرَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى [طه: 77].

وقال سُبحانَه: فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ [الدخان: 22 - 24].

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿53﴾

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) أي: فأرسَلَ فِرعَونُ مَن يجمَعُ له مِن مدُنٍ كَثيرةٍ جُنودًا؛ ليَلحَقوا بني إسرائيلَ فيَرُدُّوهم. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: (فلمَّا أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيبٌ، غاظ ذلك فِرعَونَ واشتَدَّ غَضَبُه على بني إسرائيلَ؛ لِما يريدُ اللهُ به مِن الدَّمارِ، فأرسَل سريعًا في بلادِه حاشرين).

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿54﴾

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) ي: إنَّ بني إسرائيلَ لَطائِفةٌ ضَعيفةٌ وقَليلةٌ. موسوعة التفسير

قال الطِّيبي: (قولُه: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ يوهِمُ قِلَّةَ الاحتفالِ بهم، وأنَّ قتالَهم إنَّما هو لأجْلِ أنَّهم لنا غائظون، ومِن عادتِنا الحذرُ على دولتِنا بحُسنِ الحِفظِ، وحمايةِ حَوزةِ المملكةِ، ولقد كذَب وكان فؤادُه مملوءًا رعبًا).

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ ﴿55﴾

(وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) أي: وإنَّ بني إسرائيلَ مُغضِبون لنا أشدَّ الغضَبِ. موسوعة التفسير

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ ﴿56﴾

(وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ) أي: وإنَّا كُلَّنا مستعِدُّون بالقوَّةِ والسِّلاحِ لحَربِ بني إسرائيلَ، وقد أخَذْنا حِذْرَنا منهم. موسوعة التفسير

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿57﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان التَّقديرُ: فأطاعوا أمرَه، ونَفَروا على كلِّ صَعبٍ وذَلولٍ؛ عطَف عليه قولَه مُعلِمًا بما آلَ إليه أمرُهم

(فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) أي: فأخرَجْنا فِرعَونَ وقَومَه مِن بساتينَ كَثيرةِ الأشجارِ والزُّروعِ، وعُيونِ الماءِ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: فيه بيانُ عُقوبةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى للطَّاغينَ، وذلك بإزالةِ النِّعَمِ عنهم؛ إمَّا بإخراجِهم منها، وإمَّا بإزالتِها هيَ.

قال ابن عثيمين: تحذيرٌ للطُّغاةِ مِن أن تزولَ نِعَمُهم بسبَبِ طُغيانِهم؛ ففي عصرِنا هذا فتَح اللهُ على النَّاسِ مِن أنواعِ النَّعيمِ ما لم يكن مَوهومًا مِن قَبلُ -وبالأَولى ليس معلومًا- فيُخشَى أن يُخرَجَ هؤلاء مِن هذا النَّعيمِ إذا طَغَوا وعَتَوا عن أمرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى.

دليلٌ على أنَّ الإنسانَ قد يُؤخَذُ مِن حيثُ يَرى أنَّه علا وظهَرَ؛ فإنَّ فِرعَونَ بَعَث في المدائنِ حاشِرينَ، يَدعوهم إلى قتالِ موسى وقَومِه، فخَرجوا تابعينَ لهم على أنَّهم سيُدركونَهم، فصار في هذا الخروجِ حَتْفُهم وهلاكُهم، ونظيرُه في هذه الأُمَّةِ ما صنعتْ قُرَيشٌ حين خرجتْ إلى بدْرٍ، وكان أبو جَهلٍ يقولُ: (واللهِ لا

نَرجِعُ حتى نَقْدَمَ بدرًا فنَسقيَ فيها الخُمورَ، وتَعزِفَ علينا القِيانُ، ونَشرَبَ الخُمورَ؛ حتى تسمَعَ بنا العرَبُ، فلا يَزالون يَهابونَنا أبدًا)، فأُخِذوا مِن حيثُ أَتَوا. الدرر السنية

كما قال تعالى: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ [الدخان: 25 - 27].

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿58﴾

(وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) أي: وأخرَجْناهم من أموالِهم ومساكِنِهم الحسَنةِ التي كانوا يتنعَّمون فيها. موسوعة التفسير

قال مجاهِدٌ: (سَمَّاها كُنوزًا؛ لأنَّه لم يُعْطَ حقُّ اللهِ منها، وما لم يُعْطَ حقُّ اللهِ منه فهو كَنْزٌ، وإنْ كان ظاهِرًا).

(يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) [التوبة: 35].

يوم القيامة توضع قطع الذهب والفضة في النار، فإذا اشتدت حرارتها أُحرقت بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم. وقيل لهم توبيخًا: هذا مالكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله، فذوقوا العذاب الموجع؛ بسبب كنزكم وإمساككم. الميسر

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿59﴾

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) أي: كذلك وأورَثْنا الجنَّاتِ والعُيونَ والكُنوزَ والمساكِنَ التي كانت لفِرعَونَ وقَومِه بني إسرائيلَ. موسوعة التفسير

وقال البقاعي: (كَذَلِكَ أي: مِثلَ ذلك الإخراجِ العجيبِ الذي أراده فرعونُ مِن قومِه في السرعةِ والكمالِ والهَيبةِ، أخرَجْناهم نحن بأنْ يسَّرْنا له ولهم ذلك، ووفَّرْنا لهم الأسبابَ؛ لِما اقتضَتْه حِكمتُنا...).

قال الألوسي: (قال الواحدي: إنَّ الله تعالى ردَّ بني إسرائيلَ إلى مصرَ بعدَما أغرَق فِرعونَ وقومَه، فأعطاهم جميعَ ما كان لقومِ فِرعونَ مِن الأموالِ والعقارِ والمساكنِ، ...).

كما قال تعالى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف: 137].

وقال سُبحانَه: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ [القصص: 5].

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿60﴾

(فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) أي: فلَحِقَ فِرعَونُ وجنودُه بني إسرائيلَ وقْتَ شُروقِ الشَّمسِ. موسوعة التفسير

وقال ابن عثيمين: (وكِلا المعنيَينِ صحيحٌ؛ فمُشرِقٌ: متَّجِهٌ نحوَ المشرقِ باعتبارِ المكانِ، ومُشرِقٌ: وقت الشُّروقِ باعتبارِ الزمانِ).

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ﴿61﴾

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) أي: فلمَّا رأى كلٌّ مِن جمعِ موسى وجَمعِ فِرعَونَ الآخَرَ، قال أصحابُ موسى: سيُدرِكُنا فِرعَونُ وجنودُه، ولا نَستطيعُ الفِرارَ؛ فالبَحرُ أمامَنا، وهم خَلْفَنا. موسوعة التفسير

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿62﴾

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) أي: قال موسى مُطَمْئِنًا قومَه: ليس الأمرُ كما ذَكَرتُم مِن أنَّنا مُدرَكون؛ لأنَّ ربِّي معي بنَصرِه وتأييدِه، وسيَهديني لطَريقِ النَّجاةِ. موسوعة التفسير

وقال ابن عثيمين: فيه قوَّةُ يقينِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقد قال ذلك في هذا المقامِ المحْرِجِ الذي لا يرى الإنسانُ فيه إلَّا أنَّه هالِكٌ؛ ولهذا قال أصحابُه: إنَّا لَمُدْرَكُونَ

قال القصاب: لأنَّ موسى خاف عَصاهُ حينَ تحوَّلتْ ثُعبانًا في بُدُوِّ أمرِه، وخاف حِبالَ السَّحَرةِ وعِصِيَّهم يومَ ألقَوْها، فلمَّا تَمكَّنَ في النبوَّةِ، وكثُرَتْ آياتُ اللهِ الجميلةُ عندَه، وعاينَها منه وَقتًا بعدَ وقتٍ؛ أيقنَ أنَّه لا يُسلِمُه لشِدَّةٍ، وقد سَلَّمَه منها مرَّةً بعدَ أخرى؛ فقال ما قال ثقةً بربِّه، وتوكُّلًا عليه.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿63﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا حَكَى سُبحانَه عن موسَى عليه السَّلامُ قولَه: إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء: 62]، بَيَّنَ تعالى بَعْدَه كيف هَداه ونجَّاه، وأهلَكَ أعداءَه بذلك التدبيرِ الجامعِ لِنعَمِ الدِّينِ والدُّنيا، فقال

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) أي: فأوحى اللهُ إلى موسى، فقال له: اضرِبْ بعَصاك البَحرَ الذي أمامَك. موسوعة التفسير

(فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) أي: فضرَبَ موسَى بعصاه البحرَ، فانشَقَّ، فكانت كلُّ قِطعةٍ مِن الماءِ كالجَبَلِ الكبيرِ. موسوعة التفسير

وقال ابن عثيمين: أنَّ كلَّ شيءٍ يَمتَثِلُ لأمرِ اللهِ، وأنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على قَلْبِ الأمورِ عن طبائعِها، فضلًا عن تَغَيُّرِ صِفاتِها؛ فهذه النارُ التي مِن طبيعتِها الإحراقُ والحرارةُ كانت بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ في الحالِ، وهذا الماءُ الذي مِن طبيعتِه الإغراقُ والسَّيلانُ صار آمنًا لا يَسيلُ بالنِّسبةِ لبني إسرائيلَ

قال البقاعي: (كَالطَّوْدِ أي: الجبَلِ في إشرافِه وطولِه وصلابتِه بعدمِ السَّيلانِ ? المتطاوِلِ في السماءِ، الثابتِ لا يتزلزَلُ؛ لأنَّ الماءَ كان منبَسِطًا في أرضِ البحرِ، فلما انفرَقَ وانكشَفَت فيه الطُرُقُ انضَمَّ بعضُه إلى بعضٍ، فاستطال وارتفَعَ في السَّماءِ).

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى [طه: 77].

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ ﴿64﴾

(وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ) أي: وقرَّبْنا فِرعَونَ وجُنودَه مِن البَحرِ، وأدخَلْناهم في ذلك الطَّريقِ المنشَقِّ لِنُغرِقَهم. موسوعة التفسير

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿65﴾

(وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ) أي: وأنجَيْنا مِن الغرَقِ موسى والذين معه كُلَّهم، وسلَّمْناهم مِن عدُوِّهم. موسوعة التفسير

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ ﴿66﴾

(ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) أي: ثمَّ أغرَقْنا فِرعَونَ وقَومَه كُلَّهم في البَحرِ، فلمْ يُفلِتْ منهم أحَدٌ. موسوعة التفسير

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿67﴾

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أي: إنَّ في قِصَّةِ موسى وفِرعَونَ لَعِظةً وعِبرةً عَظيمةً، ودَلالةً واضِحةً للنَّاسِ على صِدقِ الرَّسولِ، وحِكمةِ اللهِ وتَوحيدِه، وقُدرتِه العظيمةِ على إهلاكِ الكافرين وإنجاءِ المؤمِنينَ. موسوعة التفسير

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ فِرعَونَ مؤمنينَ بالله، فلم يُؤمِنْ منهم إلَّا قِلَّةٌ قَليلةٌ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف: 103].

وقال سُبحانَه: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ [هود: 17].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿68﴾

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ي: وإنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- لَهُوَ العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يبيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه ينجِّي أتْباعَ رسُلِه. موسوعة التفسير

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: يَذكرُ سُبحانَه في هذه السورةِ قصَّةَ موسى وإبراهيمَ، ونوحٍ وعادٍ، وثمودَ ولوطٍ وشعيبٍ، ويَذكرُ لكلِّ نبيٍّ إهلاكَه لمكَذِّبيهم، والنَّجاةَ لهم ولأتبَاعِهم، ثم يَختمُ القِصَّةَ بقَولِه: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، فختَمَ القصةَ باسمين مِن أسمائِه تقتضيهما تلك الصفةُ، وهو «العزيزُ الرحيمُ»، فانتَقَم مِن أعدائِه بعِزَّتِه، وأنجى رُسُلَه وأتباعَهم برحمَتِه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: مِن آياتِ الأنبياءِ إهلاكُ اللهِ لمكَذِّبيهم، ونَصرُه للمؤمنينَ بهم، فهذا مِن أعلام نُبُوَّتِهم، ودلائلِ صِدقِهم؛ كإغراقِ اللهِ قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوه، وكإهلاكِه قومَ عادٍ بالرِّيحِ الصَّرصَرِ، وإهلاكِ

قومِ صالحٍ بالصَّيحةِ، وإهلاكِ قومِ شُعيبٍ بالظُّلَّةِ، وإهلاكِ قومِ لوطٍ بقلْبِ مدائنِهم، ورجمِهم بالحجارةِ، وكإهلاكِ قومِ فِرعَونَ بالغَرَقِ، وقد ذكر اللهُ القَصَصَ في القرآن في غيرِ موضعٍ، وبيَّنَ أنَّها مِن آياتِ الأنبياءِ الدالَّةِ على صِدقِهم كما يذكُرُه في هذه السورةِ، لَمَّا ذكر قِصَّةَ موسى قال: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، ثمَّ ذكَرَ قِصَّةَ إبراهيمَ وقال في آخِرِها: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [الشعراء: 103] ، وكذلك ذكَرَ مِثلَ ذلك في قِصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشُعَيبٍ.

مَنْ يَتَدَبَّرُ كِتَابَ اللهِ -تَعَالَى- يَلْفِتُ نَظَرَهُ كَثْرَةُ تِكْرَارِ قِصَّةِ مُوسَى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ القِصَّةُ فِي القُرْآنِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَثَلَاثِيْنَ مَرَّةً، حَتَّى قَالَ السُيُوطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: "كَادَ القُرْآنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ لِمُوسَى".

تَكَرَّرَتْ قِصَّةُ مُوسَى -عَلَيهِ السَّلَامُ- فِي القُرْآنِ كَثِيرًا لِيَسْتَلْهِمَ مِنْهَا المؤْمِنُونَ العِبَرَ وَالعِظَاتِ، وَيَتَدَّبَرُوا فِي أَحْدَاثِهَا وَمَوَاقِفِهَا، فَهِيَ قِصَّةٌ جَمَعَتْ بَيْنَ أَحْوَالِ الظَّالِمِينَ وَالجَبَابِرَةِ، وَأَحْوَالِ الطُّغَاةِ وَالأَكَاسِرَةِ، وَبَيْنَ أَحْوَالِ المؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَفِتْنَةِ المُبْتَلَينَ المظْلُومِينَ.

يَبْعَثُ اللهُ -تَعَالَى- مُوْسَى -عَلَيهِ السَّلَامُ- إِلَى ذَلِكَ الطَّاغِيَةِ، طَاغِيَةٌ تَجَبَّرَ فِي الأَرْضِ، وَبَغَى، وَادَّعَى الرُبُوبِيَةَ، وَصَاحَ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) [النازعات:24]، وَأَجْبَرَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) [القصص:38].

أَخَذَ مُوسَى -عَلَيهِ السَّلَامُ- فِي دَعْوَةِ قَوْمِهِ، وَجَادَلَهُمْ بِالحُجَّةِ وَالبَيَانِ، وَأَجْرَى اللهَ عَلَى يَدِهِ المعْجِزَاتِ البَاهِرَةِ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهَا فِرْعَونُ وَقَوْمُهُ، فَاتَّهَمُوهُ بِالسِّحْرِ؛ (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)[القصص: 132]، ثُمَّ ابْتَلَاهُمُ اللهُ بِالبَلَايَا لِيُؤمِنُوا، (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)[القصص:132].

وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ اسْتَخَفَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ، وَكَانَ الأَشَدَّ تَأْثِيْرًا، وَكَانَ المؤمِنُونَ أَقَلِّيَةً، (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) [يونس:83].

ثُمَّ يُوحِي اللهُ -تَعَالَى- لِمُوسَى أَنْ يُكْثِرَ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ، فَالزَّمَنُ زَمَنُ فِتْنَةٍ، (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) [يونس:87]، قَالَ مُجَاهِدُ وَغَيْرُهُ: أَي اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَسَاجِدَ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ فِيْهَا.

وَلَمَّا ضَاقَ الحَالُ بِمُوسَى وَقَوْمِهِ دَعَا -عَلَيْهِ السَلَامُ- اللهَ فَقَالَ: (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) [يونس:88-89].

ثُمَّ يُوحِي اللهُ -تَعَالى- إِلَى مُوسَى أَنْ يَخْرُجَ لَيْلَةَ العَاشِرِ مِنْ مُحَرَّمَ مَعَ الثُّلَّةِ المؤْمِنَةِ مَعَهُ، فَيَعْلَمُ فِرْعَونُ بِخُرُوجِهِمْ، وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يُطَارِدَهُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ، فَيَجْمَعُ قَوْمَهُ وَيَشْرَعُونَ بِمُلَاحَقَةِ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى البَحْرِ.

شَاهَدَ قَوْمُ مُوسَى فِرْعَونَ مِنْ خَلْفِهِمْ، والبَحْرَ مِنْ أَمَامِهِمْ، فَصَاحُوا بمُوسَى: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) [الشعراء:61].

قال موسى عليه السلام تلك الكلمة المليئة باليقين والثقة بالله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فجاء الفرج مباشرة، فانفلق البحر العظيم بضربة واحدة من عصا موسى، وتحول إلى طريق يابس أنجى الله فيه موسى ومن معه، وأهلك فيه فرعون وجنده أجمعين.

بعد تلك الكلمة المليئة باليقين والثقة بالله جاءت النجاة؛ قال موسى تلك الكلمة التي زلزلت عروش اليأس والتردد والخوف من قلوب أصحابه، لتزلزل بعد ذلك الباطلَ وتقضي عليه، ويهلك غير مأسوف عليه.

وَيَتَرَاءَى الجَمْعَانِ، وَتُغْلَقُ الأَبْوَابُ أَمَامَ مُوسَى -عَلَيهِ السَّلَامُ- إِلَّا بَابَ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ، الذِي أَنْجَاهُ صَغِيْرًا مِنَ المَوْتِ، وَرَعَاهُ كَبِيْرًا، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ النِّعَمَ، وَكَلَّفَهُ بِالنُّبُوَّةِ، فَيَقُوْلُ مُوْسَى لِقَوْمِهِ (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء:62].

عِنْدَ ذَلِكَ يَأْتِي الفَرَجُ مِنَ اللهِ -تَعَالَى-، وَيَأْتِي الوَحْيُ مِنَ اللهِ (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [الشعراء:63].

يقين يزلزل الجبال الرواسي، وثقة بالله تفلق البحر، فتجعله كالطود العظيم بأمر الله، وطمأنينة تمنح الأمان وتحيل الأرض المغمورة بالماء والطين إلى أرض يابسه، وأمل يبلغ الشاطئ وينجي من العدو.

اِنْفَلَقَ البَحْرُ فَأَصْبَحَ أَمَامَ مُوسَى وَقَوْمَهُ طَرِيْقٌ يَبَسٌ، يَمْتَدُّ إِلَى الضِفَّةِ الأُخْرَى، والبَحْرُ عَنْ يَمِيْنِهِ وَشِمَالِهِ كَجَبَلَيْنِ عَظِيْمَيْنِ، وَيَمْضِي مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مُسْرِعِينَ فِي هَذَا الطَّرِيْقِ، لِيَعْبُرُوا إِلَى الجِهَةِ المُقَابِلَةِ مِنَ البَحْرِ، وَيَتْبَعُهُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَبَعْدَ أَنْ وَصَلَ آخِرُ شَخْصٍ مِنْ أَصحابِ مُوسَى إِلَى الضِّفَّةِ الأُخْرَى أَمَرَ اللهُ -تَعَالَى- البَحْرَ أَنْ يَعُودَ كَمَا كَانَ، فَيَنْطَبِقُ البَحْرُ عَلَى الطَّاغِيَةِ الذِي قَالَ يَوْمًا مُتَغَطْرِسًا: (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي) [الزخرف:51]، فَأَجْرَى اللهُ -تَعَالَى- المَاءَ مِنْ فَوقِهِ.

وَيُصَارِعُ فِرْعَونُ الأَمْوَاجَ، (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[يونس:90-91]، وَلِأَنَّ هَذَا الطَّاغِيَةَ قَدْ بَلَغَ تَعْظِيْمُهُ مِنَ النَّاسِ مَبْلَغًا كَبِيرًا، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يُهْزَمَ وَلَنْ يَمُوتَ، قَالَ اللهُ: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) [يونس:92]، فَأَرَى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ جُثَّةَ فِرْعَونَ بِأَعْيُنِهِمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مُهْلِكُ البَاطِلَ وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ، وَأَنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِيْنَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ.

هَذِهِ القِصَّةُ العَظِيْمَةُ تَكَرَّرَتْ فِي كِتَابِ اللهِ مَرَّاتٍ عَدِيْدَةٍ، بِسِيَاقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، لِتَتَرَسَّخَ لَدَى المُؤْمِنِيْنَ الدُرُوسُ الجَلِيْلَةُ المُسْتَفَادَةُ مِنْهَا، وَقَدْ كَانَتِ اليَهُودُ تُعَظِّمُ يَوْمَ هَذِهِ الحَادِثَةِ جِدّاً، رَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَدِمَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- المَدِينَةَ، فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَومَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: "ما هذا؟"، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ:

"فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنكُمْ"، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ. فَحَرِيٌّ بِالمؤْمِنِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي هَذِهِ القِصَّةِ، وَيَسْتَلْهِمَ مِنْهَا الدُّرُوسَ وَالعِبَرَ.